القيم البدوية الإيجابيـــة في عصر صدر الإسلام
الكرم والشجاعة – نمـوذجـاً

الباحثة : حيـاة سالـم عودة

أ. د. نضال إبراهيم ياسين

جامعة البصرة- كلية التربية للعلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

لقد وجدت تجليات البداوة في شعر عصر الإسلام، وإن كانت بسيطة إلا أننا التمسنا ظهورها في الشعر؛ كون الشعر الاستجابة الفنية للتعبير عند الإنسان، فلم تخبت الروح البدوية، بل طغت على أشعار شعراء عصر صدر الإسلام _ ولاسيما المخضرمين منهم _ ، فقد مثل شعرهم البيئة البدوية بكل تفاصيلها ودقائقها، فقيم الكرم والشجاعة والبطولة والتعصب للقبيلة والحنين للبادية ، ورفض القيود ألقت بظلالها على أشعار هذا العصر، الذي غذاه رافدان مهمان هما رافد التجديد والإبداع الذي فرضته الحياة الإسلامية الجديدة ،والرافد الآخر هو التقليد والإتباع للقديم .

الكلمات المفتاحية : القيم، البدوية، الكرم، الشجاعة .

Positive Bedouin Values during the Islamic Period With Reference to Generosity and Courage

Researcher :Heyat Salim Oda
Prof.Dr. Nedhal Ibrahim Yassin
Dept. of Arabic language , College of Education for Human Sciences,
University of Basrah

Abstract:

There were manifestations of Bedouin in the poetry of the Islamic era, though these were not complicated, the existence of such aspect in poetry was evident since poetry is considered as an artistic reaction to human expression. Thus, the Bedouin spirit was there and became dominant in the poetry of that era, especially in the poems of the old poets. Their poems embody the Bedouin atmosphere in various prospects in and minute details such as the values of bravery and courage and clan fanaticism as well as the longing for the desert. Their poetry also showed a rejection of the shackles which were widespread at that time represented by two aspects: the first was renovation and creation that were forced by the new Islamic tradition, and the second was imitation and adoption of the old tradition.

Key words: values, Bedouin, generosity, bravery .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٠

الـــمـــقـــدمـــــــــة :

يحاول هذا البحث تلمس جذور البداوة في شعر عصر صدر الإسلام، وبيان سر حُضورها في النص الشعري، إذ تسربت كثير من القيم والمفاهيم القديمة فاستطاعت النفاذ إلى النصوص الشعرية في عصر صدر الإسلام، كون العصر الإسلامي هو امتداد زمني للعصر الذي سبقه والذي سادت فيه البداوة في مظاهرها المختلفة، وظلت مظاهر البداوة متواجدة في مختلف جوانب الحياة العامة على الرغم من تغير الزمان فكأن النص الأدبي بحرٌ متلاطم الأمواج، فهو هادئ بشكله العام خادع بسكونه إلا أنّهُ في واقع الأمر عالم آخر ، تشع لآلئهُ المكنونة بإيحاءاتٍ تخطف المتلقي وتُغريه لِسبر أغوار النص بإيقاعاتِها النابعة من روح الشاعر، مُشَّكِلة لوحة سردية مترابطة أو نصاً دراماياً مُتخيلاً أو أبياتاً شعرية تفوح منها ذات الشاعر، وتتكامل عناصر القصيدة وتتحد لِتبدو الأبيات بأبهى حلَّة...

لقد عبر الشاعر عن بيئته بكل مظاهرها العامة واصفاً كل ما يحيط به من مظاهر مادية أو معنوية مصوراً بكاميرا الشعر طبيعة حياتهم الإجتماعية، فالشعر هو سجل لتأريخ الأمم، بشواهده الشعرية النابعة من حياة الشعوب بكل جوانبها وتفاصيلها الحياتية الدقيقة، فلم يكن تفكير الشاعر فردياً، بل هو تفكير جمعي مرتبط بكل ما حوله من جوانب المجتمع البدوي، ومن أبرز القيم التي التمسنا ورودها في الشعر هي :

ـ الـــــكـــــــــــــــــــــرم :

عرف أهل البادية بالكرم منذ القدم، ولما جاء الإسلام أيّد تلك العادات النبيلة والقيم الخلقية الفضيلة من إكرام الضيف ومساعدة المحتاج، إذ عُدّ الكرم من السجايا البدوية في بيئة قفر قل فيها الزرع وانقطع الضرع، وأبدى أهل البادية التزاماً بتلك القيمة التي باتت لصيقة بالبدوي، ولاسيما بتوفر المال مما يجعله كريماً في مجتمع فقير يعاني فيه الإنسان من شظف العيش ومن الجوع، ويفرح البدوي بإكرام ضيفه ويُكْرِمهُ ببشاشة ورحابة، وينحر له الجزور أيام القر في البادية المجدبة، ويفخر بسرعة استجابته لِضيفهِ وبإكرامه له، وفي التجاء الفقير إليه كونه معروفاً بالكرم وحسن الضيافة، يقول أبو ذؤيب الهذلي[١] :

وَمُـفْـرِهَـةً عَـنْـسٍ قَـــدَرْتُ لِـرِجْـلِهـــا فَـخَـرَّتْ كَـمـا تَتَـابَـعُ الـرِيْـحُ بالـقَفْـلِ

لِحَـــيٍّ جِيَـــاعٍ أو لِضَيْـفٍ مُـحَـــوَّلٍ أُبَـــادِرُ حَـمـداً أنْ يُـلِـجَّ بِهِ قَبْلِـــي

رَوِيْتُ وَلَـم يَغْـــرَمْ نَـدِيْـمِـــيْ وَحَـاوَلَـــتْ بَنِـــيْ عَـمِّهـا أسْمَـاء أنْ يَفْعَـلُـوا فِعْـلِـي

فالشاعر يصف مشهد نحره ناقته القوية التي خرَّتْ حال ما ضربها فطارت روحها كما تَطير الرِّيح باليبس من الشجر فيدفع بعضهُ بعضاً، وتبرز ظاهرة الكرم البدوي عند القرّ واشتداد البرد ولا يبخل البدوي في النفيس من حيوانه، بل يجود بأسمى ما يملِك، وفي هذا يقول كعب بن مالك الأنصاري في رِثاء الحمزة عم النبي(صَلّى الله عَلَيْهِ وآله وَسَلّم)، فيقول[٢]:

قَـــرْمٌ تَـمَـكَـن فِـيْ ذُؤابَـةِ هَـاشِـم حَيْثُ الـنُبُـوَة والـنَـدى والسـؤدد

والـعَـاقِـرُ الـكـوّم الجَـلاد إذا غَـدَتْ رِيـحٌ يَـكَـادُ الـمـاء مِنْهـا يَجْمَـدُ

فالشاعر يرثي الفقيد مفتخراً بكرمه في الليالي الباردة التي يجمد فيها الماء، إذ لا يكتفي بنحر القليل بل يجود بنحر النوق العظيمة السنام الغزيرة اللبن إكراماً لضيفه، وبهذا فإن الكرم من أسمى الفضائل التي يفخر بها البدوي، ومن مثل هذه اللوحة البدوية في قِرى الأضياف عند اشتداد البرد، حيث يعجر الكلب عن النباح وتختبئ الأفاعي في جحورها، ويضطر جازر الإبل أن يُدخِل يَدَيْهِ في كرش الجزُور طلباً للدفيء من شدة قرِّ البادية وبرد الصحراء، حيث يجود الكرماء بالخير والعطاء للأضياف، تجسد جنوب الهذلية تلك المعاني البدوية السامية في رِثائها لأخيها معددة مأثره ومنها جوده وكرمه، تقول[٣]:

وَلَـيْـلَـةٍ يَـصْـطَـلِـي بالـفَـرْثِ جَـازِرُهـا يَـخْتَـصُّ بالنَقْـرى المُثْـرِيْنَ دَاعِـيْهـا

لا يَنْبَـحُ الكَـلْـبُ فِـيْهـا غَـيْرَ وأحِـدَةً مـن العِـشـاء وَلا تَسْـرِي أفَـاعِيْـهـا

أطْـعَـمْـتَ فِـيْهـا على جوْعٍ وَمَسْغَبَـةٍ شَـحْـمَ العِـشَـارِ إذا مـا قَامَ باغِيْهـا

وورد كثير من شعر الشعراء في الفخر بالكرم البدوي أوقات المحل والقرِّ واشتداد البرد، يقول كعب بن زهير مادحاً كرم الأنصار[٤]:

وَهُـم إذا خَـوَتْ الـنُجُـومُ فـإنَهـم للطـائِفِـيْن الـسَـائِلِـين مَـقَـارِى

....

والـمُطْـعِـمـونَ الضَّيْفَ حِيْنَ يَنُوبُهـم مِن لَـحْـم كُـومٍ كـالهِضَـابِ عِشَـار

والـمُنْعِمـونَ الـمُـفْضِـلُونَ إذا شَـتَـوْا والـضَـارِبـون عِـلاَوَةَ الـجَـبَّـارِ

فهم كرماء لا ينحرون إلاّ النوق الغالية الثمينة الكبيرة الأسنمة (وشبه الشاعر سنام الناقة بالهضبة لِعظمها) وأحمد ما يكون من الإطعام والإفضال ما كان في الشتاء المجدب...

وفي امتزاج الفخر بالكرم البدوي، تتضافر عناصر الطبيعة البدوية القاسية برياحها الباردة الجافة وأمطارها القليلة، وما اكتسى به المجتمع البدوي من فقرٍ وجدب وعندها تبرز صفة الكرم التي يفخر بها المكرمون، يقول أدْهم بن أبي الزعزاء[٥]:

إذا الـرِيْـحُ جَـاءت بالجِهـامِ تلفه هـذا ليله شَـلَّ النعـام الطـرائـد

فـأعْـقَـبَ نوء الـمُـرزَمَـينَ بِغَـبْرَة وقَـطْـر قَـلِيْـل الـمَـاء بالليل بـارِد

كَفَـى حَـاجَـة الأضْيَـافِ حتى يريحهـا عـن الحَـي مِنـا كُـلَّ أروع ماجـدِ

فالشاعر يصف كرم المكرمين وإيواءهم للضيف على الرغم من البرد الشديد، متخذاً من حيوان البادية مثالاً لتجسيد شدة برودة الطقس، إذ صور حال النعام التي عرفت بالنشاط وسرعة الحركة، إلاّ أنها في هذا الوقت حيث شدة البرد سكنت كأنها شُلّت حركتها، ومن أجمل المواقف الاجتماعية التي يتجلى من خلالِها نُبل ابن البادية، أنَه يقدم ضيفَه على نفسِهِ في السقيا، وإن كانت إبلهُ على ظمأ ،يقول النمر بن تولب[٦]:

وَلا أُسْـقَـــــى وَلا يُسْـقَـــى شَـــــرِيْبِـــي وَأمنعــهُ إذا أوْرَدْتَـــــهُ مَـــــائِـــــي

يُعِـــــلُّ وَبَعْـضُ مـــا أسقـــى نِهَـــــالُ وأُشـــربـــه عـلـــى إبـــلـــي الظَـمـاءِ

ومن المعلوم أنّ صفة الكرم لازمت البدوي حتى صارت مظهراً مُلازماً له، وقيمة اجتماعية عرفها وعبر عنها، ويصف متمم بن نويرة في رثائهِ لأخيه مالك بن نويرة كرم أخيه في لوحاتٍ بدوية رائعة توضح بشكل جلّي الكرم البدوي، يقول[٧]:

وضيـــفٍ اذا أرغـــى طـروقـــاً بعـــيرَه وعـــانٍ ثـوى فـــي الـقـدِّ حتى تـكنّعـــا

وأرمـلـــةٍ تمشـــي بـــأشْعَـــثَ مُـحْـثـلِ كـفَـرْخِ الحُبـــارى رَأسـه قـد تصـوّعـــا

اذا جَـــــرّد الـقـــــومُ القـداح واوقـــدت لهـم نـارُ ايســـــارٍ كـفى مـــن تضجعـــا

وإنْ شَهِـــدَ الأيســـار لـم يُلْـــفَ مـــالك علـــى الفَـرْثِ يحمي اللحـــــم أن يتوزعَـــا

وفي الشتاء يجود الكرماء بالطعام للأضياف، ويكثرون الطبخ لهم، إذ تجسد كثرة الرماد كثرة الطبخ، كما تجسد سعة القدور وعظمتها، ويذهب البدوي إلى تشبيه تلك القدور بالحوض الكبير الذي يكاد يتهدم جانباه، وذلك إشارة إلى وفرة الطعام الذي يُطبخ بتلك الجفان، يقول أبو خراش الهذلي [٨]:

كـأبِي الـرَّمَـادِ عَـظِـيـمُ الـقِـدْرِ جَفْـنَتُـهُ عِنْدَ الشِّـتـاءِ كَحـوضِ الـمُـنْهِـلِ اللَّـقِـفِ

ومن مظاهر الكرم البدوي في صحراء البادية الواسعة الموحِشة إيقاد النار في الليالي الظلماء في مكانٍ مرتفعٍ ليرى ضوءها أكبرُ عدد من المسافرين أو التائهين، فيتوجه إليها وينال الكرم والضيافة من الكرماء، وتعرف تلك النار_ بنار الكرم_ أو نار القِرى، ووصفها الشعراء في معرض المدح بالكرم البدوي، يقول الحطيئة[٩]:

مَتَى تـأتِـــهِ تَعْـــشُـو إلـى ضَـوْءِ نَـــارِه تَجِـدْ خَـــيْرَ نَـارٍ عِـنْـدَهـا خَـيْرُ مَـوْقِـــدِ

وتوقد النار في المرتفعات مظهر بدوي اشتهر به الكرماء الذين يسعون إلى أن يراها أكبر عدد من المسافرين أو ممن ضلوا الطريق ليقصدوا إليها، ويصف البدوي تلك النار بأنها متوقدة وأكثر ضوءاً، لأنها أوقدت من شجر العرفج، الذي عُرف بسرعة التهابه وقوة ضوئه، وفي ذلك يقول الشماخ بن ضرار[١٠]:

بِمَـفْـطُـوحـــةِ الأطْـرافِ جَـــدْبٍ كأنَّما تَـوَقُّـدَهـــا فِـيْ الصَّخـــــرِ نيـرَانُ عَـرْفَـجِ

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٠

وكثرة رماد القدر عند البدوي إشارة إلى كثرة الطبخ وكثرة القدور ومن ثَم كثرة الأضياف التي تدل على كرم أهل البادية وجودهم، وعرفت تلك النار بـــ نار الموقد_ ويصف سعد بن كعب الغنوي في مرثيته لِأخيه، بأنه كثير رماد القدر، يقول[١١]:

كَـــثـــيرُ رَمـــادِ القِـدرِ رَحـبٌ فِـــنـــاؤه إلـــى سنَـــدٍ لَـــم تحتجِنْـــــهُ غُـيـــــوبُ

ويذهب الدكتور أحمد الحوفي إلى حقيقة وهي أنَّهم((كانوا يحيون في بادية شحيحة بالزاد وحياتهم ترحل وتجوال، فَكل واحد منهم مُعَرض لأن ينفِذَ زادُه، فهو يُقرى ضيفه اليوم، لأنّه سَيضطر إلى أن يُضاف في يوم، ثمَّ أنهم يكرمون لِكَلَفِهم بحُسن الأُحدوثة، وطيب الثناء، ولأنهم ذو أريحية وحساسية تُسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف))[١٢].

وتتبلور أسمى مظاهر الكرم البدوية في قصيدة الحطيئة، حيث يُصور لنا الشاعِر صفِة الكرم عند العربي البدوي، فعلى الرغم من الفقر الذي يعانيه البدوي في بيئته القاسية، نجدهُ عاصب البطن جائع، إلاّ أنّهُ عند رؤيته للضيف ينسى جوعه ويصبح مِضيافاً لضيفهِ، حسن الجود والضيافة، يقول[١٣] :

رَأى شَبَـحَـاً وَسْـطَ الظَـلامَ فَـراعَـــــهُ فَـلَّمـا بَـدا ضَيْفَـــاً تَســـــــوَّرَ واهْتَمَّـا
فقـــال ابنُـــهُ لَـــمَّـــا رآهُ بِجِـــيرَةٍ أيـا أبَتِ اذبَحْنِـــي وَيَسِّـر لـــــه طُعمـــا
ولا تَـعْـتَـذِرْ بالعُـــدْمِ عـلَّ الـذي طـرا يَظُـــنُّ لَنا مَـالاً فَـيـوســـعـنـا ذَمَّـــا
وَقـالَ هَـيـا رَبـاهُ ضِيْفٌ ولا قـــــرىً؟ بِحَقّـــــك لا تَحرِمْـهُ تالليلـةَ اللَّحْـمـــــا

فالحطيئة يؤكد على تلك القيمة البدوية فالكرم لا يتحقق عندهم(إلاَّ بعملية الذبح لإطعام الضيف وإكرامه، وهذا يدل على اهتمام البدوي بتلك القيمة المرتبطة بِحياتهم وطبيعة مجتمعهم)[١٤] فيقول بعدما نال البشرى لحصولهُ على صَيدٍ لِيُكرِمَ ضَيْفَهُ، يقول[١٥]:

فَبَيْنَمـا هُمـا عَنَّتْ على البُعْدِ عـانَةٌ قـد إنْتَظمَـت مِنْ خَلْـفِ مِسْحَلِهـا نَظْـمـا
فَـيـأ بَشْـرَهُ إذ جَـرَّها نَحْـوَ قَـوْمِـهِ ويـا بَشْـرَهُـم لـمَّـا رأوا كـلْمَهـا يُـدْمـا
فَبَـاتـوا كِـرامـاً قَد قَضوا حقَّ ضيْفِهم فلـم يَغْـرِمـوا غُـرمـاً وقـد غَنِموا غُنْمـا
فَبـات أبـوهـم مـن بَـشـأشَتِـهِ أبـاً لِـضَيْـفِهِـمُ والْامُّ مـن بشْـرهـا أمّـا

فالشاعر كان كالأب لِضَيْفِهِ في عطفِهِ ورفقه، وكانت زوجته كالأم لِضيفها في ترحيبها وحنانها ومعاملتها الحسنة، وبهذا فإن البدوي لا يكتفي بإطعام ضيفه، بل يعمد إلى المعاملة الحسنة واستقبال الضيف ببشاشة ولُطف وترحيب، فالشاعر يشيد بالجانب النفسي والتحلي بالقيم الخلقية الرفيعة التي عرفت عن أهل البادية، ولا يكتفي البدوي بنحر القليل، بل يجود بما يملك، ويجسد النمر بن تولب تلك القيم الرائعة الموغِلة في الكرم، والتي يسمو بها البدو وقت الفاقة وقفر البيداء يقول[١٦]:

وَقَـرَيْتُ فِـيْ مَقْـري قـلائص أرْبَـعا وقـريتُ بعـد قـري قـلائص أربـع

ـ الشجـــــــــــاعـــــــــــة:

تعد من أبرز القيم المعنوية البدوية، التي أسهمت البيئة البدوية الصحراوية في تكوينها وترسيخها

فقد عرف العربي الشجاعة منذ الطفولة، وشبَّ وكبَر في بيئة تمتدح الشجاعة، وتتغنى بالبطولة والإقدام في المعارك، وحماية الذمار، والأخذ بالثأر، وترفض الخنوع وتأبى الذل[١٧]، وعرف أهل البادية الشجاعة وهي قيمة أصيلة وعادة حميدة لابد منها في بيئة محفوفة بالمخاطر تسودها الوحوش ويحكمها قانون الغاب .

إنَّ طبيعة حياة أهل البادية عمادها الكر والفر، والغزو والإغارة، والصيد والطرد لسد رمقهم وتوفير حاجتهم الضرورية اللازمة للبقاء على قيد الحياة، فلابد من التحلي بالقوة والشجاعة لمواجهة ظروف الحياة الصعبة والتغلب على قساوة البيئة الصحراوية المجدبة .

لقد تغنى العربي بالشجاعة وفخر بها، وبرزت تلك القيمة المعنوية الإيجابية بشكل جلِّي وواضح في الحروب، وتجسدت في انتصارات القوم على أعدائهم، ويفخر العباس بن مرداس السلمي بانتصاراته مع فوارس قومه من بني سليم فلا يداهمون حياً إلاّ حلت الهزيمة في صفوف أعدائهم يقول[١٨]:

إذا الخَيْـلُ جَـالـتْ عن صَـريْـعٍ نُكِـرُّهـا عَلَيْهِـم فمـا يَـرْجِـعْـنَ إلاَّ عَـوابِـسَـا
نُـطَـاعِنُ عـن أحْسـابِنـَا بِرِمـاحِنـا ونضْـرِبُهُـم ضَرْبَ المُذِيْد الخَوامِسَـا
وكُنْتُ أمـامَ الـقَـوْمِ أوَّلَ ضـارِبٍ وطَـاعَنْتُ إذ كـانَ الطِعَـانُ تَخَـالُسَا

....

وكُنـا إذا ما الحَـرْبُ شَبَّتْ نَشُبُّهـا وَنَضْـرِبُ فِيْهـا الأبلَـخَ المُتَقاعِسـا

فالشجاعة سمة وعادة معروفة عند البدوي، ويذهب الدكتور يحيى الجبوري إلى ما إنماز به العباس بن مرداس من نزعة أعرابية قَبلية لازَمتهُ في كثيرٍ من الأحداثِ، وما الشجاعة التي اتسم بها إلاّ بعض من تلك النزعة البدوية التي تؤثر الجرأة والشجاعة وتستأثر بها[١٩]، ومن المظاهر البدوية للشجاعة فخر الشعراء بموتهم قتلاً في المعارك، فذلك هو المجد، يقول عمرو بن شأس[٢٠]:

نَـدَعُ الـدَّنِيَّـةَ أنْ تَحُـلَّ بِنـا وَنَشُـدُ حِيْنَ تَـعـاوَرَ النَّبْـلُ

....

لَسْنـا نَمُـوت علـى مَضـاجِعِنـا يـا ليلَ بلْ أدواؤُنـا القَتْـلُ

ويفخر عمرو بن معد يكرب، مجسداً هَول المعركة مبيناً حاله، فهو الشجاع الذي لا يفر وأن أشتد الطعن والفزع، يقول[٢١]:

وَلّمـا رأيْتُ الخَيْـلَ زُوْراً كـأنَّهـا جَـداولُ زَرْعٍ أُرْسِلـت فـاسْبَطَـرَّتِ
فجَـاشَّـتْ إلـيَّ النَفْـسُ أوَّل مَـرّةٍ فَـرُدَّتْ علـى مَكْـرهها فـاسْتَقرَّتِ

ويُشيد كعب الغنوي في رثائهِ لأخيه بجملة من المفاخر التي عُرف بها أخوه، ومنها الشجاعة والإقدام التي جاءت في طليعة القيم، التي طالما افتخر بها البدوي، وقد حرص الشاعر على إظهارها في أبيات الرثاء ،إذ يقول(٢٢):

أخِـي مـــا أخِـي لا فـاحِشٌ عِنْـدَ بيتِهِ ولا ورِعٌ عِنْـد اللِّقـــــاءِ هَيـــوبُ

هُـو العَسَـــلُ المـــاذِيُّ حِلماً وَنـائِلاً وَلَـيْثٌ إذا يَـلْـقـى العَدُو غَضوُبُ

ولو عرجنا على الصعاليك لاتضحت قيمة الشجاعة بشكل جَلِّي بكل روافدها البدوية من فقرٍ وسرعةٍ وإغارة وقوة عزيمة عرف بها البدوي ((والواقع إن هذه الشجاعة لم تكن مقصورة على صعلوك دون صعلوك، وإنَّما كانت صفة يمتاز بها كُلُّ الصعاليك حتى أصبح الصعلوك مثلاً يُضرب في الشجاعة))(٢٣)، ويفخر أبو خراش الهذلي بشجاعته، وسرعة فراره وهربه، ليأمن العاقبة وينجو بنفسه من الموت المحتم، لِيعاود الغارة مرة أخرى عندما تتاح له الفرصة، ويعمد البدوي للغارة كونها من وسائل كسب العيش، ويقول هنا (٢٤):

فـإنْ تَـزْعُمِـي إنِّـي جَبُنْتُ فإننـي أفـــرُّو وأرمِـــيْ مـــرةً كُـــلَّ ذّلِك

أُقـاتِـلُ حتَّـى لا أرى لِـي مُقـاتِـلاً وأنجـــو إذا ما خُفـتُ بَعضَ المَهـالِك

وفي تصوير الشاعر لِهول المعركة تتجسد الشجاعة والبطولة، فحتى الخيل تنصاع لِقيادة الفارس المِغوار وتهابه، وفي ذلك يرسم المخبل السعدي لوحة البطولة البدوية، فيقول(٢٥):

وإنـا أُنـاسٌ تَعْـــرِفُ الخَيْـلُ زَجْـــرَنـا إذا أمطَـــرَت سُحُـب الصَـــوارِمِ بالـدَمِ

وإنـا لَنُعْطِي النَّصْف من لـــو نَضيمُـــهُ أقَّـــرَّ ونـأبـــى نَخـــوةَ المُـتَظَلِّـــمِ

ويصف الشاعر السيوف بأنها حادة ،وقوية ،وذلك في معرض فخره بقوة قومه وبسالتهم وهم على قوتهم وشجاعتهم لا ينصرون الظالم، بل يؤيدون المظلوم وينصرونه، وفي صدر الإسلام يطالعنا شعر الفتوحات الإسلامية، الذي تشع فيه شذرات من المواقف البطولية التي تفاخر بها أبطالها وجسدوها في أبياتٍ خالدة، ومن أبطال القادسية_ قيس بن مكشوح المرادي_ يقول(٢٦):

جَلَبْتُ الخيـل من صَنعـاءَ تـردي بِكُـــلِّ مُدجـجٍ كـالليـثِ ســـــامِ

إلـــى وادي القُـــرى فدِيـــارِ كلـبٍ إلى الـــيَرْمـــوكِ فـالبَلَـــدِ الشـآمِ

وجئـت القـــادسية بـعـد شهـــرٍ مُسَـوَّمَـــةً حـــوافِـرُهـــا دوامي

....

فلّمـــا إن رأيْتُ الخَيْـــلَ جالـــت قَصَـدْتُ لمـوقفِ المَلِكِ الهُمامِ

فـأضْـرِبُ رأسـهُ فهـوى سَرِيعـاً بســيـفٍ لا أفـــــل ولا كَهـــــامِ

ويتضح من الأبيات عنفوان البدوي وعصبيته، الذي يفخر بشجاعته وإقدامه وينطلق الشعر على لسان الفاتحين مصورين جوانب المعركة ومشاهد النزاع تصويراً دقيقا، ويخفت أثر الدين –غالبا– في شعر البدو حين تستعر الروح البدوية، ويرسم الشاعر لوحات تشبيهية، تتراءى فيها الرماح وكأنها ترعِفُ بدماء الأعداء، ويصدح الشعراء بالفخر ببسالة فرسانهم وشجاعتهم في المعارك، يقول ابن الطيفانية[٢٧]:

ونحـن بنـو زَيْـدٍ إذا حضـر القَنـا مَـنَعْنـا حِمانـا والـرِمـاحُ رَواعِـفُ
وإنِّـي لمـن قَـوْمٍ زرارةَ مِنهـم وعَمـرو وقعقـاعَ أولاكَ القطـارِفُ
وذو الـقـوسِ مـنـا حاجِبٌ قد علِمتم كفـى مُضـر الحَمْراء إذ هو واقِفُ

وتستعر الروح القبلية في شعر ليلى الأخيلية، مسلطة الضوء على مظهر الشجاعة في سوح القتال تقول مصورةً بالكلمات حبيبها المرثي توبة، مقلدة إياه شتى المعاني والقيم التي يحرص عليها العربي في باديته من شجاعة وبطولة وكرم وعفة، تقول[٢٨]:

تـراهُ إذا مـا لمـوت حـلَّ بِـورِدِهِ ضـروبـاً علـى أقـرانِـهِ بالصفـائِـح
شُجـاعٌ لَـدى الهَيْجـا ثَبْتٌ مُشايِحٌ إذا انحـاز عـن أقـرانِـهِ كـلُّ سابحِ

ولعل من أجمل ما قيل في الشجاعة، قول كعب بن زهير واصفاً المهاجرين في بردتهِ، فقد جمع سيلاً من صفات المحارب الشجاع القوي القادر على تحقيق النصر على أعدائه، واصفاً عدة الحرب من دروع محبوكة ورماح وسيوف مشرعة وخطواتٍ ثابته واثقة لا يفرها النصر ولا تجزعها الغلبة، يقول[٢٩] :

فـي عصبة مـن قـريش قـال قـائِلهُـمْ ببطْـنِ مَكَّـةَ لـمـا أسلَـمُـوا زُولُـوا
زَالُـوا فمـا زَالَ أنكـاسٌ ولا كشُـفٌ عِنـدَ اللِّـقـاءِ ولا مِيـلٌ معـازيـلُ
شُـمُّ العـرانينِ أبطـالٌ لَـبُوسُهـمُ مِـنْ نَسـجِ دَاوُدَ فـي الهَيْجا سَرابِيْـلُ
بِيضٌ سَوَابِـغَ قـد شُكّـت لهـا حَلَـقٌ كـأنَّـهُ حَلـقُ القَفْعـاءِ مجـدُوْلُ
لا يفـرحـونَ إذا نـالـت رِمـاحُـهم قـومـاً ولـيسـوا مَجَـازِيعـاً إذا نِيلُـو
يمشُونَ مشي الجمـالِ الزُّهرِ يَعصِمُـهم ضـربٌ إذا عـرَّدَ السّـودُ التّنـابيـلُ
لا يقـعُ الـطَّـعـنُ إلاَّ فـي نُحـورِهـمُ ومـا إن لهم عـن حِيـاضِ الموتِ تهليل

ولا تكتمل لوحات الشجاعة من دون تصوير آلات الحرب من رماحٍ وسيوفٍ وسهام، كونها من لوازم القوة والبقاء، ودارت أسماء الرماح وأنواعها التي عرفها البدوي في بيئته وعبر عنها في مفاخرته بقوته وشجاعته، ويصف البدوي كثرة الجيوش وقد غطت بغبارها شعاع الشمس، يقول تميم بن مقبل[٣٠] :

وَقَـوْمٌ بـأيْـدِيْهِـم رِمـاحٌ رُدَيْنِيَـةٌ شَـوارِعُ تستـأنِـي دَمـاً أو تَسَلَّـفُ
بِجمْـعٍ رَأتْـهُ الجِـنُّ فـاخْتَشَعتْ لـهُ وللشَّمْس أدْنـى لِلخُسُـوفِ وأكْسَـفُ

الخاتمة:

ومن هنا نخلص الى ان الكرم والشجاعة من الصفات المكملة للقيم العربية في بيئة بدوية يعيش اهلها في العراء ،ويحملون السلاح دائما،ويتجافون عن الهجوع ،ويتفردون في البيداء، كما ان الشجاعة من خلق العربي يتغنى ،ويفخر بها حتى صارت له سجية ،وخلق .[٣١]، وتنسجم الشجاعة مع الكرم لتتكامل مع غيرهم من الصفات الحميدة ،كالحلم ،والعفة ،وحسن الجوار، ركائز القيم العربية الأصيلة، فالكرم من السجايا التي نالت مكانة مميزة لاتقل عن الشجاعة أو غيرها من القيم الأخرى في بيئة البادية ، كما انها من الاخلاق العربية المتوارثة في خلق أهل البادية – على وجه الخصوص– كما ساهمت البيئة الصحراوية الشحيحة بمواردها في تعزيز تلك القيم، ولاسيما في السنين الممحلة والليالي الباردة (٣٢)

هوامش البحث :

١.شرح أشعار الهذليين،١|٩٣، المُفرِهة: الناقة التي تأتي بأولادِها فواره،(ودابة فارِهَة أي نشيطة حادَّة قويّة)، ينظر: لسان العرب : مادة فره، والعنس: الصلبة الشديدة، وقَدرتْ: هيأتْ، لِرجلِها: أي ضربت رجلها بسيفي فخرَّت لما عرقبتها، وتتَّابع: تمضي به وتتابع، والقَفْل: ما جف من ورق الشجر، ويُلِج: يُؤخذ، ورويت: أراد اشتريت فرويت ولم يشتر نديمي، وحاولت: راودتهم أنْ يفعلوا مثلما أفعل فلم يطيقوا ذاك .

٢.ديوان كعب بن مالك الأنصاري، ١٢٦، القَرْم: السيّد المعظم،وينظر: لسان العرب مادة :قرم، ذؤابة: ذؤابة القوم، شريفهم والمقدم فيهم، ينظر المعجم الوسيط : الذُّؤابة، والعاقر: من العَقْر وهو أثرٌ كالحزّ في قوائم الدابة، والكوم: النوق العظيمة السنام، والجَلاّد: من النوق الغزيرات اللبن.

٣. شرح أشعار الهذليين، ٢|٥٨٢، يصطلي بالفرث: يدخل يديه ورجليه في الكرش من شدة البرد، والنقَّرى: أن يدعو واحد واحدا، والمثرون: أهل الثرة والغنى، والجفلى: أن يعم في دعائه، ولا تسرى: لا تجئ ليلاً ، والسرى سير الليل، والمسغبة: الجوع، وباغيها: الذي يبغي القرى .

٤. شرح ديوان كعب بن زهير، ٢٨–٢٩، خوت النجوم: إذا لم يكن لها مطر، ومقارى: وواحدُ المقرى، الذي يقرى الضيق، والعشراء: التي أتت عليها العشرة أشهر من حملها (وهي الأعز عليهم، لأنها إذا نحرت نحر اثنان هي وولدها)، وينوبهم: يأتيهم، والكوماء: العظيمة السنام، وعِلاوة: العنق، والجَّبار : الشديد.

٥. موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي،٦١، الجهام: السحاب لا ماء فيه، ينظر: لسان العرب : مادة جهم ،وشل النعام: تغلب عليه وشل حركته،ينظر: لسان العرب مادة نعم، والمرزمان: نجمان والنوّء: رياح شديدة السرعة .

٦. شعراء إسلاميون،٣٩٢، شريبه: الذي يشرب الماء معه، وأمنعه: أراد ولا أمنعه والنهال: من النهل وهو أول الشرب، والعلّ: الشرب الثاني .

٧. مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي، ١٠٩_١١٠، يقال: ارغى الرجل، إذ ضل طريقه فحمل بعيره على الرغاء لتجيبه الإبل برغائها أو تنبح لِرغائه الكلاب فيقصد الحي، والعاني: الأسير، والقد: القيد وهو سير من الجلد، تكنع الأسير في قده، يريد

أن هذا الأسير طالت مدة أسره حتى يبس القيد على جلده فتقبض واجتمع، والمُحتل: الصبي قد سيء غذاؤه، وتصوع: تفرق شعره، والايسار: أشراف الحي الذين ينحرون وقت الجذب ويطعمون بالميسر، ويحمي اللحم أن يتوزعا: يريد أنه لا يحمي لحمه أن يتوزع .

٨. شرح أشعار الهذليين، ١٢٢٨|٣، كأبي الرماد: عظيم الرماد ،المنهل، الموضع الذي فيه المشرب، ينظر: لسان العرب :مادة نهل، والحوض اللّقف: الذي يتهدَّم من أسفله، ويتلقَّف: يتهدم .

٩. ديوان الحطيئة،٧٠ .

١٠.ديوان الشماخ بن ضرار، ٩٣، مفطوحة: صحراء واسعة، نار العرفج: خص نار العرفج لأن نارها أسرع التهابا وأوسع وأكثر ضوءاً .

١١.الأصمعيات، ١١١، سند الجبل: ما أرتفع عن الوادي وسف عن الجبل، والمعنى أنه يكون حيث يراه الناس، إذا طُلِب لم تحتجبه غيوب، والغيب: البطن المنخفض من الأرض .

١٢.الحياة العربية من الشعر الجاهلي،٢٤٠.

١٣.ديوان الحطيئة، ١٧٨، فراعه: أخافه، وتسوَّر: فرحا، والعدم: الفقر، وطرا: آصله اطرأ، ويوسعنا: يكثر من ذمه لنا في قبائل العرب، والقرى: الطعام .

١٤.صورة البطل في الشعر العربي ، ٣٦٨.

١٥.ديوان الحطيئة، ١٧٩، مسحلها: قائدها وكبيرها الذي يقودها إلى الماء، وهو حمار الوحش، والبشر: السعادة والفرح، والكَلْم: الجرح، وقضوا حق ضيفهم: أي قاموا بواجبه من القرى والإكرام، والغرم: الخسارة والضرر والغُنم: الفوز بالحاجة، وبات: أمضى الليل .

١٦.شعراء إسلاميون، ٣٥٨، قريت الضيف: اضفته، والمقرى: موضع القرى، وقلائص: جمع قلوص وهي الفتية من الإبل .

١٧.ينظر: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي،٢٥٩ .

١٨.ديوان العباس بن مرداس السلمي، ٩٣–٩٤، نكرها: نرجعها، والمذيد: الذي يعينك على ما تذود، والخوامس: الإبل التي وردت خمسا (وهي تشرب يوما وترعى ثلاث ثم ترد في اليوم الخامس، وهي من أحرص الإبل على الماء لشدة ظمأها)، تخالسا: من تخلس القرنان أي رام كل واحد منهما اختلاس الأخر، الأبلخ: المتكبر، والمتقاعس: المتمنع الذي لا يُطأطأ رأسهُ .

١٩.ينظر: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيهِ، ٢١٥.

٢٠. شعر عمرو بن شأس الأسدي ،٢٣٦.

٢١.شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي، ٧١، زور: جمع أزور وهو المعوجّ الزّور ، الجداول : جمع جدول، وهو النهر الصغير ، جاشت النفس :اهتزّت واضطربت من خوفٍ

٢٢.الأصمعيات، ١١١، الورع: الجبان الضعيف، والهيوب: الذي يهاب غيره الشديد الخوف، والماذي: العسل الخالص، والنائل: العطاء.

٢٣.الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي،٤١.

٢٤.شرح أشعار الهذليين، تحقيق، السكري، ١٢٤١/٣.

٢٥.شعراء مقلون، ٣١٨، الصوارم: القواطع .

٢٦.شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ٢٥٩.

٢٧.موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، ١٦، وينظر: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ،٢٤٩.

٢٨.شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ،١٣٩، مشايح: جمع مشيح وهو الشجاع المجيد.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٠

٢٩.شرح ديوان كعب بن زهير، ٢٣–٢٥، انكاس: جمع نكس وهو الرجل الضعيف، الكُشف: جمع أكشف، وهو الذي لا ترس ولا سلاح معه، وميلٌ: جمع ميل وهو الكِفل الذي لا يحسن الفروسة، أي لا يستوي في الركوب على الفرس، والمعازيل: من قولهم (رجل اعزل، إذ لم يكن معه رمح)، والعرانين: الأُنُوف واللَّبوس: ما يلبس من السلاح، والسَّرابيل: جمع سربال، أي لبوسهم سرابيل من نسج داوود عليه الصلاة والسلام، وبيضٌ: جمع أبيض وبيضاء ويعني الدروع ، والسوابغ: وهي التامة من الدروع .

٣٠.ديوان ابن مقبل،١٥٠، ردينية: نسبة إلى ردينة وهي امرأة تنسب إليها الرماح، وشوارع: موجهة مسددة إلى الاعداء، وتستأني دماً: أي تنتظره، وتستلف: تستعجل، وبجمع: أي بجيش، واختشعت له: أي خضعت وذلّت، وأدنى للخسوف: يريد كأن الشمس قد خُسفت من الغبار الذي يثيره هذا الجيش .

٣١.ينظر: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ٣٣١

٣٢. ينظر: أثر التراث الجاهلي في الشعر الأموي ، ٣٠

المصادر :

١. أثر التراث الجاهلي في الشعر الأموي: حسين عبد حسين، كلية الآداب ، جامعة الكوفة ،٢٠٠٧

٢. الأصمعيات: اختيار: عبد الملك بن قريب، تحقيق وشرح : د، محمد نبيل طريفي، دار صادر بيروت،ط١، ٢٠٠٢م .

٣. الحياة العربية من الشعر الجاهلي: د .أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ط٢، ١٩٥٢م.

٤. المعجم الوسيط:د.ناصر سيد أحمد وآخرون، دار إحياء التراث العربي ،بيروت–لبنان ،ط١، ٢٠٠٨م.

٥. ديوان ابن مقبل، تحقيق: د.عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت،ط١، ١٩٩٥م.

٦. ديوان الحطيئة، شرح ورواية: ابن السكيت، دراسة وتبويب: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

٧. ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ، شرح وتحقيق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦٨م.

٨. ديوان العباس بن مرداس السلمي، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، ١٩٩١م.

٩. ديوان كعب بن مالك الأنصاري، دراسة وتحقيق: سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٦م.

١٠.شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، جمع وترتيب: بشير يموت، المطبعة الوطنية، بيروت ط١، ١٩٣٤م.

١١.شرح أشعار الهذليين: صنعة: أبي سعيد السكرى، تحقيق: عبد الستار أحمد فرج، مراجعة :محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، مطبعة المدني، القاهرة، ط١، ١٩٦٥م .

١٢.شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة، أبي سعيد السكري، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ،ط٤، ٢٠١٠م.

١٣.شعراء إسلاميون: د. نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، ط٢، بيروت ١٩٨٤م.

١٤.الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي:د. يوسف خليف، مكتبة الدراسات العربية، دار المعارف، ط٣، ١٩٦٦م.
١٥.شعراء مقلون: د. حاتم الضامن، مكتبة النهضة العربية، بيروت،ط١، ١٩٨٧م .
١٦.شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي: جمع وتنسيق: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط٢، ١٩٨٥م.
١٧.شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: تحقيق: د. النعمان عبد المتعال القاضي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٥م.
١٨.شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيهِ: يحيى الجبوري، قدم له: محمد طه الحاجري، مكتبة النهضة بغداد ،ط١، ١٩٦٤م،
١٩.صورة البطل في الشعر العربي: د. علي متعب جاسم، مجلة ديالى، العدد٧٠، ٢٠١٦ م.
٢٠.لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، الدار المصرية ، القاهرة، ١٣٠٠ه
٢١.مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي: د. ابتسام مرهون الصفار، مطبعة الإرشاد، بغداد، (د.ط)، ١٩٦٨م.
٢٢.موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي:عبد عون الروضان، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠٠١م.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول السنة ٢٠٢٠